

جدلية الذات والآخر في الرواية العربية (مقاربة نقدية ثقافية في روايات مختارة)

Self-Controversy and The Other in The Arabic Novel (Cultural Critical Approach in Selected novels)

رشيد أحمد محمد وديجي⁽¹⁾

Rachid Ahmed Mohamed Oudija⁽¹⁾

[10.15849/ZJJHSS.240330.04](https://doi.org/10.15849/ZJJHSS.240330.04)

المخلص

ينطوي البحث على أهمية نقدية لكونه يبحث في طبيعة العلاقة الثقافية بين الشرق والغرب في ضوء تحليل المنظور الثقافي السردى المتحقق في ثلاث روايات عربية هي "مدن الملح"، و"سأهيك مدينة أخرى"، و"شرقية في باريس" وهي لروائيين عربيين مشهورين. وحاول البحث تسليط الضوء على العيوب النسقية التي تشوب العلاقة بين الشرق والغرب، والكشف عن النزعة الاستعلانية التاريخية التي يتصف بها المنظور الغربي تجاه الشرق والشرقيين عبر التحليل النسقي الثقافي للروايات الثلاث. وعليه، يمكن ترجمته هذه الأفكار من خلال طرح النقاط الآتية:

هل فعلاً هناك تواصل بين الذات والآخر؟ وكيف تجلّى ذلك في الروايات المدروسة؟ كيف صوّرت الرواية ثقافة التواصل بين الذات والآخر وإشكالية تجسيدها؟ أكان تواصلًا عدائيًا يهدف إلى الهيمنة والسيطرة على الآخر أم كان تواصلًا ثقافيًا إنسانيًا يبغى التلاقي؟
الكلمات المفتاحية: الآخر، الرواية، مقارنة ثقافية، ثقافة التواصل، التمثلات، الصور النمطية، علم الصورة.

Abstract

The research at hand is critical in that it examines the nature of the cultural relationship between East and West in the light of the analysis of the narrative cultural perspective achieved in three Arab novels: (Salt Cities), (I Will Give You Another City), and (Eastern Paris) are famous Arab novelists, and the research tried to highlight the stereotypical flaws in the East-West relationship, and to reveal the historical spontaneity of the Western perspective towards East and Orientalists through the systematic analysis of the three narratives. Thus, the translation of these ideas lies in making the following points:

Is there really a connection between one's own and another? How did this manifest itself in thoughtful narratives? How did the novel portray the culture of communication between oneself and another and the problem of its incarnation? Was it hostile communication aimed at dominating and controlling the other, or was it human cultural communication that desired convergence?

Keywords: The other; The novel; A cultural approach; Culture of communication; Representations; Stereotype; Imagology.

⁽¹⁾ University Of Moulay Ismail, Polydisciplinary Faculty, Department Of Arabic, Modern Literary * Corresponding author: Oudija1979@hotmail.com

Received: 01/10/2023
Accepted: 19/03/2024

⁽¹⁾ جامعة مولاي إسماعيل، الكلية متعددة التخصصات، الدراسات العربية،

أدب حديث

* للمراسلة: Oudija1979@hotmail.com

تاريخ استلام البحث: 2023/10/1

تاريخ قبول البحث: 2024/3/19

المقدمة

تحاول هذه الدراسة التي سمينها بـ"مقاربة ثقافية لجدلية الذات والآخر في الرواية العربية" الاقتراب من المقاربات التي حاولت الخوض في مجالات بحثية معاصرة، تمثلت في قضايا الهوية الثقافية، وتمثيل الآخر، وخطاب الاستشراق، وخطاب التلاقح الثقافي، وما إلى ذلك من الصور التي تتشكل في ذهنية المتخيل، وتصبح قابلة للتحوير وفقا للأنساق الثقافية، وما تضمه من دلالات.

ارتأينا الاقتراب من المنجز السردي العربي لاستجلاء التصورات التي شكلتها مخيلة الروائي العربي. ومثلنا لهذا الغرض بنماذج روائية لعبد الرحمن منيف: "مدن الملح - التيه"، وعبد الكريم غلاب: "شرقية في باريس"، وأحمد إبراهيم الفقيه: "سأهبك مدينة أخرى"، حيث يصبح الآخر ضرورة من ضرورات الخيال، فلا "يزال خطر مزدوج التجربة يحدق بعمل الانطباعي، فصورة الآخرين معرضة لأن تكون سطحية... ثم أنها تفقد الكثير من براءتها عندما تفرض استخدام الآخر كوسيلة..."⁽¹⁾. وهي خطابات سردية لا تخلو من إحالات رمزية ووحدات دالة تعالج طيمة الذات في علاقتها مع الآخر، قد تسعى لمد جسور الحوار بين ثقافات الشعوب، أو قد تشكل صورا نمطية عن الآخر.

وعليه، سيتم التركيز على الأنساق المنغرس في الخطابات السردية التي تتجسد في مجموع الصور النمطية، وفي المنظومة المعجمية التي تعالج قيمة الذات في علاقتها مع الآخر، كما لا تخلو من إحالات رمزية ووحدات دالة، بحيث تكمن أهمية الأحكام المسبقة في عملية إدراك وتقديم الآخر في شكل سلبي ومختصر، ونقل صور مشوهة عن ثقافته. ولا يمكن الحديث في مثل هذا عن تداخل ثقافي دون الإقرار بالاختلاف، فهو اكتشاف للآخر واحترام لهويته المغايرة. كما أن هناك قرائن تخضع لها مواقف الروائي قد تفرضها الاتجاهات الأيديولوجية والممارسات الفكرية المختلفة⁽²⁾؛ لتشكل فضاء ثقافيا يرتبط بالخيال في إطاره الاجتماعي والثقافي.

رواية "سأهبك مدينة أخرى" وإشكالية تجسيد ثقافة الإقصاء والتواصل

تكمن أهمية هذا المحور في استجلاء الرؤى التصورات التخيلية التي شكلتها الرواية، على اعتبار أن مسار التاريخ تشكل الصور التخيلية المتبادلة بين الشعوب والحضارات، والتي تتحول في غالب الأحيان إلى صور نمطية.

الرواية تصور المواجهة الحضارية بين القادم من أحد الدول العربية، ويقدم دراساته العليا في أدنبرة ببريطانيا عاملا على أطروحة عن "العنف والجنس في ألف ليلة وليلة"، فكان دائما -أي البطل- يستدعي المقارنة بين ما يراه، وما هو موجود داخل أعماق كيانه الشخصي الذي جبل عليه، لكنه قادم من الشرق داخل دوار الانبهار والاندهاش، ويريد في كل لحظة أن يتواصل مع المجتمع الجديد الذي تخلى عن كثير من العقد في قيمه المختلفة ونظراته المتباينة، وكانت علاقته بالمرأة هي الوسيلة أو أداة الروائي لإبراز ذلك، فعبير العلاقات النسائية العاطفية والجنسية صور الروائي بطله الشخصية أثناء ذلك التباين الحضاري الذي لم يصل إلى حد الصراع.

(1) آفاية محمد نور الدين، المتخيل والتواصل، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر، بيروت، 1993، ص15.

(2) Daniel Henry Pageaux, de l'imagerie à l'imaginaire, précis de littérature comparée, P.U.F, Paris 1989, p 140.

هذه الإشكاليات التي يعالجها الفقيه في روايته، والمتمثلة في التناقض ما بين عالمين، عالم الكبت والارتواء، عالمه الشرقي الذي يفرض قيمه المترتبة في علاقة الرجل بالمرأة المغيبة في سراديب البيوت، وعالم الغرب حيث تفتح العلاقات الإنسانية ما بين الرجل والمرأة التي تمنح نفسها لمن تشاء. وما يمكن ملاحظته هو اختيار الروائي لقيمة واحدة في رؤية عالم الغرب والتعامل معه، هذه القيمة تتمثل في العلاقة بالمرأة الغربية التي يمكن أن نراها مفتاح رؤيته للعالم الغربي.

إن اختيارنا لرواية "سأهبك مدينة أخرى" ناتج أولاً عن اختلاف الرواية عما كان سائداً، لأنها رصدت صورة العربي بقدر ما رصدت صورة الآخر، وركزت على مناحات العنف والجنس والتغيير. وثانياً، إن هناك تحولاً في معالجة موضوع الصراع بين الشرق والغرب لا من زاوية الموضوع، ولكن من زاوية الكتابة بحيث وقع نوع من التفكك داخل الكتابة نفسها أي محاولة تدمير وتفكيك كل الأشكال التي تعبر عن هذا التماهي مع الغرب وخصوصاً الشكل الواقعي. ثم ثالثاً، إن الرواية تساهم في رسم صورة معاصرة لصدام بين عالمين في عصرنا الراهن المشحون بالتوتر.

نظراً للتباين بين المنشأين الغربي والشرقي، فإن العلاقة مع المثقف العربي من منظور المرأة الأوروبية غالباً ما تكون مأزومة، ويعزز ذلك ما رصده بعضهم في أغلب المتون الروائية العربية، حيث "أن كل الأوروبيات وبدون استثناء يخفقن في اللقاء المتواصل بالرجل، فأغلبهن يمتن معبرات عن عجزهن في الحفاظ على علاقتهن بالمثقف العربي"⁽¹⁾، وهذا ما انسحب على ليندا في علاقتها بخليل الإمام في رواية "سأهبك مدينة أخرى"، فهي بحكم كونها مالكة للغرفة التي استأجرها في بيتها، ترصد الفتيات اللاتي يصحبهن كل ليلة معه إلى الغرفة، وتتساءل: "ما هذا الذي تفعله أيها البدوي؟"⁽²⁾، وتترك على الفور عطشه للأنثى ونهمه للجنس، وهذه في تصويري واحدة من الصور النمطية التي تزخر بها النصوص الروائية، التي تتناول حياة الشرقي في الغرب، لكن المفاجئ لليندا ازدواجية خليل في التعامل معها، بعد أن عرف أن زوجها دونالد كان على علم بالعلاقة الجنسية التي تقيمها معه، بل كان سعيداً بها، فوقع خليل "في تناقض بين موقفين، موقف ثقافته الذي يعد هذه العلاقة خيانة زوجية، وموقف المرأة ورجلها، اللذين تقبلان هذا الوضع نتيجة لأسباب موضوعية يستطيعان استيعابها نتيجة ثقافتهما أيضاً"⁽³⁾.

لقد تجلى الصدام الحضاري والتباين الحضاري بين نظرتي خليل الإمام وساندرا عندما التقى بها في المكتبة، ودار بينهما الحوار حول (جامع الفراشات) لجون فاوولز.

قال: - "ما الذي يعجبك في قصة تتحدث عن رجل غريب الأطوار يختطف امرأة ويسجنها في بيته؟

تفرستني بنظرة استغراب قبل أن ترد ضاحكة:

- إذن فهو أنت. إنك لا تحتاج إلى قراءة هذه القصص. لأن ما تفعلونه في الشرق مع نسائكم كل يوم.

ظننتك تقضي عطلة الصيف في بلادك.

(1) الباردي محمد رجب، شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة، د.ط. الدار التونسية للنشر، تونس، 1993، ص344.

(2) الفقيه أحمد إبراهيم، سأهبك مدينة أخرى، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000، ص23.

(3) برهانة علي، الرواية الليبية، مقاربة اجتماعية، رسالة دكتوراه مرقونة، مقدمة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 1996، ص429.

- وهل لا بد أن أتعذب هنا بشتائم اللعين، ثم أذهب إلى بلادي لأتعب بصيف أكثر لعنة؟ أليس من حقي بعد هذا الشتاء المرعب أن أحصل على صيف أقل رعباً؟ وأنت ما الذي أبقاك؟
- وماذا أفعل إذا كانت أدنبرة هي مدينتي؟
- أعرفك أنك تسكنين مثل الأعراب، بيوت الطلبة.
- لم أعد طفلة أحتاج إلى الرعاية العائلية.
- قالت عندما انتقلنا إلى مقصف المكتبة:
- حاولت الاتصال بك ولكن هاتفك لا يجيب.
- سبق أن أخبرتك بطبيعتي البدوية التي ترفض الإقامة في مكان واحد.
- وأين نصبت خيمتك هذه المرة؟⁽¹⁾.

لعل تلك العبارات الموجزة تفصح عن الخلاف بين الطبايع، وهو ما تزخر به رواية "سأهيك مدينة أخرى" وفيها تتهمه بأنه شرقي وأن الشرقي يجمع النساء ويسجنهن كما أنه يرى أنها لا بد أن تعود لأسرتها طبقاً للتقاليد والأعراف الشرقية بينما الفتاة في الغرب تتمتع بكامل حريتها واستقلالها دون أن ينازعها أحد حقها.

السؤال التقليدي المهم يقول: هل كان الروائي حيادياً في عمله الإبداعي؟ ونكاد نقول إنه لم يعبأ بهذا، ولم يتقيد به فهو لم يكن حيادياً عندما قدم وجهة نظره عن الأوضاع في المجتمعات الغربية.

في الجانب الشخصي فساندرا تدرك أن ما يفعله خليل خاضع في جزء كبير منه لإرث طفولته، وعندما يخبرها عن البؤس والشقاء اللذين عاناها في طفولته، ترى أن هذه الطفولة لا تصنع إلا مجرماً أو مجنوناً⁽²⁾. ووفق هذا الفهم تقوم بتشخيص المثقف، فهو "إنسان يخجل من ضعفه"⁽³⁾، ويختفي "خلف العبارات الغامضة"⁽⁴⁾، ولا ينتمي إلى الواقع، بل "يقيم في الخرافة"⁽⁵⁾ وهو بالمحصلة "أغبي رجل قابلته حتى الآن"⁽⁶⁾، ولذلك ترفض أن تقاس تصرفاتها بمقياسه الشرقي، ولا ترضى منه أن يقدم تقييماً لمسلكياتها، فهي بما تقوم به تتسق مع صراعها مع الواقع الذي تعيشه، أما هو فإن بيته الحقيقي "ينتمي إلى عوالم وعصور شهرزاد"⁽⁷⁾، وإذا كانت تحس بتقل الحاضر، وتشرع في طقوس البكاء للتخفيف من ضغط الحياة عليها، فإنه مطالب بالبكاء، كي يتخلص من ثقل الماضي عليه، فالبكاء يليق به أكثر منها⁽⁸⁾.

إن خليل من منظور ساندرنا واقع تحت ضغط الموروث الحضاري الشرقي، وليس غريباً أن يرتبط الشرق عندها فقط بالعربية والإسلام معاً، ويتجلى ذلك في طريقة الفصل بين الشرقي الصيني وخليل الشرقي العربي،

(1) الرواية، ص 111-112.

(2) الرواية، ص 132.

(3) الرواية، ص 79.

(4) الرواية، ص 125.

(5) الرواية، ص 113.

(6) الرواية، ص 142.

(7) الرواية، ص 113.

(8) الرواية، ص 135.

ولهذا لا تخص الصيني بكبير اهتمام، بينما تعامل خليل معاملة خاصة⁽¹⁾ وتقدم تشريحا لهذه الشخصية بالرجوع إلى هويتها من جهة، ولحالة الاغتراب التي تتلبسها من جهة أخرى، فهو يجمع النقيضين، تزمت الشرق، وانفتاح الغرب. وتقدم إدانة لكل محاميله الفكرية والثقافية، عندما يحدثها عن رفضه للمشاعية الجنسية التي أقامتها مع الفرقة الأمريكية، لا تدين فهم المثقف وحده، بل تحاكم منظومته القيمة بكاملها: "ما أفلحك في اختيار الواجهات الكبيرة التي تنبئ على الفور أنك تريد أن تخفي وراءها شيئا تخشى أن يكتشفه الناس عنك"⁽²⁾.

المرأة الغربية الممثلة في ساندرا كانت أكثر دقة في تشخيص أزمة المثقف خليل الإمام، وتبقى الإشكالية الوحيدة في هذا المنظور، فيما لو انطبق عليها، ما لاحظته بعض النقاد من أن "الروايات العربية التي تتناول شخصيات غريبة، تقول هذه الشخصيات نظرتنا إلى نظرة الغرب إلينا بشكل رئيس، وليست النظرة الموضوعية التي يلتزمها الغرب تجاهنا"⁽³⁾، وإن كان يهم الباحث هنا تأكيد اتساق منظور المرأة الغربية للمثقف مع المسار العام لباقي الشخصيات، مما يعزز فريضة الموضوع في تناول منظور الشخصية إلى حد كبير، بما يتوافق مع وجودها الطبيعي ضمن بيئتها، وهو وجود مفارق لنا عيشا وثقافة وحضارة.

وعليه، فالبعد المعرفي يقدم لنا حيزا ضيقا يظهر فيه الآخر المثقف، وهو هنا دونالد زوج ليندا، ولاري أستاذ جامعي، ويخضع حضورهما المبتسر لما هو مسجل في أغلب الروايات العربية، حيث إنها لم تتعب في تقديم صورة متكاملة عن الآخر الحضاري و"اكتفت التجارب الروائية بانتقاء شخصيات محدودة وجعلت منها رمزا للآخر"⁽⁴⁾، وهذا الآخر في رواية أحمد إبراهيم الفقيه كان مأزوما ومتحولا من حالة التماسك إلى الانهيار والسقوط، فدونالد يترك بيت الزوجية ليقيم في حالة تشرد بين المومسات والحانات الرخيصة، ولاري يترك مهنته ويتحول إلى ساقى خمور ولا يحضر لدونالد منظور مهم عن المثقف، ربما يحمل ذلك دلالة الإهمال والتهميش، والمرة الوحيدة التي قدم فيها الآخر منظوره كان متسقا مع فكرة التعالي التي ألبسها في الرواية، إذ يذكر لاري خليل بالتباين الحضاري بينهما ويتعجب لتأثير الحضارة المدنية فيه "إنه أنت أيها البدوي، أخيرا ذهبت إلى دكان الحلاق، إذن فأنت تهتم بنفسك هذه الأيام"⁽⁵⁾.

لقد ترك الروائي للشخصية الرئيسية خليل الإمام سرد الرواية، فهذه الأخيرة "سأهبك مدينة أخرى" تتناول حياة الشخصية في أدنبرة أقصى مدن الشمال، ويضعنا خليل في صورة أزمته الحضارية والثقافية والسياسية ليصل من خلال المقارنة إلى مساءلة النسق الثقافي الذي ينتمي إليه، بحكم شقيقته.

أما البعد الثقافي، وفيه تكشف الشخصية عن صراع النسق الثقافي المضمر، وهو هنا صلابة الواقع، والنسق الثقافي المعلن، وهو هنا طموح الشخصية لتجاوز واقعها. وما يكشفه النص يدفع باتجاه سلبي جدا، فالشخصية تستعمل البعد الثقافي مسوغا للخيارات وليس مرجعية لما تراه من الضرورات.

(1) الرواية، ص 118.

(2) الرواية، ص 79.

(3) صالح صلاح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2003، ص 103.

(4) التلاوي محمد نجيب، الذات والمهمز، دراسة النقاب في صراع روايات المواجهة الحضارية، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص 228.

(5) الرواية، ص 108.

من الدلالات القيمة في الرواية أن الطفل الذي نتج عن العلاقة بين خليل (الشرق) وليندا (الغرب) اختار له الروائي اسم آدم أي الإنسان بإطلاقه وشموليته، فهو ابن الإنسانية ونتاج لعلاقة أيا كان نوعها فهي علاقة عاطفية، بذرة شرقية نبتت في أرض غربية، ونسبت للغرب رغم اعتراف أبيه أنه منه وله وهو واضح هذه البذرة، بعبارة أخرى فتسمية ابنه آدم تجمع فيه خصائص وملامح الأسترلين العربية والغربية ومزاجاً به كل الأسماء والثقافات الإنسانية.

يقول السارد: "إنني أسافر بجزء من نفسي واترك لديها الجزء الأجل والأكثر بهاء ونقاء ها هو يحمل جبين أبي كان جبين والذي أجمل ما فيه جبين لم يلوثه غبار المذلة والسؤال فلتحفظ أيها الصغير لجدك جبينه مضيئاً جميلاً ولتجعله سبيلك لي حياة يزينها الكبرياء"⁽¹⁾. ويستطرد: "وأنت أيتها الوهاد والينابيع والحقول وأشجار السرو والدردار والسنديان وأنت أيتها المداخن والقباب والطرقات التي تحفر الصخر وتتسلق الجبال ها هم أسلافي يتركون هذا الطفل هذا الجزء الجميل من نفوسهم وديعة لديك"⁽²⁾. ويضيف قائلاً: "سوف لن أقول وداعاً أيها الأصدقاء والأحبة لأنني وإن ارحل عنكم فإن جزءاً حميماً من نفسي سيبقى معكم به تتجدد علاقتنا وتتجدد صداقتنا على مدى الزمن على مدى الزمن"⁽³⁾.

هذا ما ينشده خليل الإمام ويتطلع إلى تحقيقه الالتحام والذوبان في الآخر، وإلغاء الفاصل التاريخي والحضاري بين الشرق والغرب في الماضي والحاضر، وصولاً إلى زمن جديد يلتقي فيه الشرق والغرب على أرض الحب والتواصل، وتتجدد فيه العلاقات والصداقات على مدى الزمن، لا صراع ولا اختلاف، مدينة أخرى وعالم آخر وزمن ثالث يلغي كل الفواصل والفوارق ما بين العالمين.

ثقافة الإقصاء ونسق عدم الاعتراف بالذات في رواية "التيه"

تعد رواية "التيه" للأديب عبد الرحمن منيف نموذجاً للنص الروائي المتبني لنسق الصدام مع الآخر الغربي، حيث يبدو الصراع الحضاري متجسداً في الرواية عبر مظاهر متعددة تتعاضد وتتألف لتعكس موقف السارد النافي لإمكانية تصالح الشرق مع الغرب، بما يرشح للتعامل مع الرواية بوصفها عملاً إبداعياً يمتاح من رؤية إيديولوجية تؤمن بتواصل الصراع بين الحضارتين الشرقية والغربية، وامتداده المستقبلي، هذا الصراع الذي يتم تجسيده عبر عدد من النماذج الإنسانية.

يتجلى، هنا، تعامل مع الاختلاف لا بوصفه سبيلاً طبيعياً للتواصل، وإنما بوصفه علامة على استحالة اللقاء الذي تتعضد استحالاته بتأسيس مساحة من التواصل.

إن نسق الصدام الحضاري يصير هو البؤرة المركزية التي يغزل عبرها النص شعرية. هذا الصدام الذي يكتسب منطقيته بمحاولات النص الدائمة إظهار عدم التكافؤ بين الحضارتين الشرقية والغربية. وهذا ما سنبرزه في الفقرات الموالية.

(1) الرواية، ص 186.

(2) الرواية، ص 186.

(3) الرواية، ص 186.

الأمريكيون منذ لحظة ظهورهم تلك كانوا جماعة، لم يكونوا شخصا بل كانوا شخصية جماعية، وبدوا أصحاب اختصاصات ومهام محددة. وبعد إطلالتهم الأولى في وادي العيون وتماسهم مع الناس هناك، اختار الأمريكيون أعوانا لهم، وبانت علاقتهم بالناس الآخرين تتم بواسطة هؤلاء الأعوان. غير أنهم كانوا حين يضطرون للتواصل المباشر يقومون بذلك بلطف ورقة بالغين، أو حب اكتشاف واستمتاع بجديد. بدأ بدراسة التاريخ والجغرافيا والدين والعادات والشعر واللغة... حاولوا أن يبنوا علاقات وثيقة مع الرجال العرب النافدين فزاروهم في بيوتهم. كانوا يحملون معهم "الكتب" وكميات من الأوراق لتدوين المعلومات.⁽¹⁾ سألوا عن مواعيد الأمطار والرياح وهجرة الطيور وأسماء الأمكنة والعشائر وطرق القوافل والآثار والسحر والدين الإسلامي...⁽²⁾، وتوصلوا إلى نتائج تلح على البدائية والتخلف. زد على ذلك، لم تعد نظرة أبناء الصحراء إلى الأمريكيين نظرة ريبة بل تأكدت تلك الريبة وبات من البديهي الانطلاق منها نحو مشاعر أشد تعقيدا. فمن جهة ثمة انبهار يلامس حدود الحسد، ومن جهة أخرى، ثمة حقد ورغبة في التعبير عن هذا الحقد.

الأفعال التي أسندها منيف إلى من قطع الأشجار تحمل معاني الحرب وروحها: "التراكتورات وهي تهجم مثل ذئب جائعة على الأشجار وتبدأ تمزيقها، وترميها أرضا الواحدة بعد الأخرى، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وشجرة ثانية [...] حتى إذا انتهت من مجموعة من الأشجار، هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة..."⁽³⁾. هدمت "حران" وأقيم مكانها مدينتان: "حران العرب" و"حران الأمريكان". إن قيام هاتين المدينتين أشار إلى الهوية العميقة بين الأمريكيين والعرب على المستوى الحضاري العام، وأشار بشكل واضح إلى العلاقة غير المتكافئة فيما بينهم.

أضف إلى ذلك، أن المكان الذي ولدوا فيه أصبح غريبا ومعاديا، وتمثلت معاناتهم الحقيقية بجهلهم لما يدور حولهم، وبانفصامهم عن ذواتهم. كانوا أسياد الصحراء فصودرت صحراؤهم. أصبحوا سرايا. وأصبح الأمريكيون الأسياد الحقيقيين، يأمرون، وينهون: ويسخرون من جهلهم.

انطلاقا من هذا، يلتقي الشرق بالغرب؛ نتج عن هذا اللقاء ثلاثة أنماط للعلاقة: العلاقة الأولى علاقة سيطرة واستغلال، والثانية علاقة رفض متبادل، والثالثة علاقة قبول مجزوء. هذا ما سنعمل على إبرازه في الصفحات الموالية.

إن القراءة النقدية الثقافية تكشف عن أهمية الآخر في تشكيل الأنساق الثقافية المضمرة داخل النص الروائي، بحيث تبدو الصورة وهمية تتجاوز حدود الواقع وتضم العيوب النسقية الماثلة في ذهنية الفرد الغربي التي تشكلت على مر العصور التاريخية. وانطلاقا من فكرة النسق، والقراءة الفاحصة للنصوص يولي عبد الرحمن منيف اهتمامه لإبراز العيوب النسقية للغرب والكشف عن النظرة الاستعلائية.

في سياق هذا المعنى يفصح أحد شخوص عبد الرحمن منيف الروائيين عن ملامح العالم الشرقي من منظور الغرب والتي تومئ إلى نظرة الرجل الغربي العدائية الممتدة في التاريخ، نستشف ذلك من كلام "سنكلر" الأمريكي

(1) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح، التيه، ج1، ط12، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الثقافي العربي، بيروت، دار البيضاء، 2008، ص277.

(2) الرواية، ص278-279.

(3) الرواية، ص111.

حين قال لأحد أصدقائه: "لا يمكن لأحد أن يفسر الحزن الذي يعيشه هؤلاء إلا إذا عرف الصحراء وعاش فيها. هذه الصحراء الملعونة لا تلد إلا مثل هؤلاء البشر ومثل تلك الحيوانات التي رأيناها ونحن آتون [...] والبكاء يخفف عنهم، لكنهم قساة، عنيدون، ولذلك سيكون في داخلهم، تنزل دموعهم إلى الداخل، وهذه الدموع الحزينة تطفو مرة أخرى على شكل صرخات وتوجع يسمونه غناء، وهم يفعلون ذلك في أعراسهم، وهم يفرحون! [...] هذا هو الغناء الوحيد الذي يتقنونه! [...] إنهم مثل الحيوانات يدفع بعضهم بعضاً، و يتحركون بهذه الطريقة البدائية تعبيراً عن الفرح"⁽¹⁾.

جاء هذا الخطاب محملاً بالصيغ النسقية ليتسع المجال للتفسير والتأويل كما الحال في النقد الثقافي الذي لا يقرأ النص لذاته إنما من أجل الإجابة عن الأسئلة المعرفية والمعاني المضمرّة التي يحتويها النص. فتعدد القراءات في حد ذاته يوحي بخضوع النص الأدبي لتأويلات متباينة على مر العصور. والنص "يكون غالباً بمنزلة ستار يخفي أفكاراً ويضمّر حقائق حياتية، ويعكس أيديولوجيا ثقافة بصيغ لغوية تلعب الألفاظ والسياقات دوراً بارزاً في الكشف عنها"⁽²⁾. فالخطاب الذي مثلنا به يحيلنا على الخطاب الاستشراقي وما يتضمنه من دلالات توجي بالنظرة الاستعمارية.

لم يكثر "سنكلر" الكلام فقد عبر "ببلاغة" عن إيمانه ببدائية الشرق. تحدث عن الغناء والرقص، وهما من الفنون. حكمه عليهما هو حكم على الثقافة بمعنى من المعاني. لم يكلف نفسه جهد الخوض في دراسة معاييرهما. التفت إلى الحزن في الغناء لأنه ظاهر وواضح تماماً. ثم التفت إلى الرقص، فرآه: "تدافعاً حيوانياً ربما يتحدث عن الرقص الجماعي، عن نوع من أنواع "الدبكة". وقد يكون "التدافع" هو حركة الالتفاف المعروفة لهذه الرقصات، وقد يكون الصخب تعبيراً عن الفرح الجماعي... لم يلتفت "سنكلر" إلى هذه الأمور. إنه مسلح بطاقة استشراقية استعمارية، وبأحكام مسبقة يسقطها على أي ظاهرة يريد، وساعة يشاء.

مثل هذا التصور يرجعه الباحث الفرنسي تيري هانتش (Hentsh Thierry) إلى أسباب عرقية، ويرجح أن يكون هذا "التأويل يختزن نظرة عرقية لتاريخ المنطقة، وهو ما يزال مقبولاً من طرف الغرب حتى الآن، لكن الفترة الحاسمة التي أبرزت الصراع الحضاري بين شرق المتوسط وغرب أوروبا تمثلت في الحروب الصليبية، من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، كرس هذا الصراع قطيعة حاسمة بين الشرق والغرب..."⁽³⁾.

يبدو لنا، أن غاية الأمريكي هي على السواء: إحكام السيطرة الغربية على الشرق، والإبقاء عليه مجالاً حيويًا لمصالحهم. دأبهم أن يبقى "موضوع دراسة، وأيضاً فسحة للمتعة والتفرج على الشعوب في طفولتها، والإبقاء على هذه الطفولة لتدوم المتعة والتبعية، وكي تستمر العلاقة المختلة"⁽⁴⁾. وسيلتهم الفضلى لتحقيق هذا الهدف أن يؤكدوا على تخلف الشرق وحاجته للغرب. لذلك لم تكن أحكامهم ونتائجهم سوى إسقاط لمعرفة مسبقة يريدون

(1) الرواية، ص 261.

(2) أحمد يوسف عبد الفتاح، "استراتيجيات الفارئ في النقد الثقافي، نحو وعي نقدي بقرأة ثقافية للنص". مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 36، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو-سبتمبر 2007، ص 202.

(3) عن أفاية نور الدين، المتخيل والتواصل، مرجع مذكور، ص 100.

(4) منيف عبد الرحمن، بين الثقافة والسياسة، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1998، ص 236.

إثباتها وتثبيتها في آن. لقد رفضهم معظم الناس، في الشرق، رفضاً كاملاً، وعدوا التعامل معهم كفراً وخيانة وإساءة. وعبروا عن رفضهم بطرق عديدة. وتكثر مواقف الرفض، وتقابلها مواقف الرفض المضاد.

رفض العرب الأميركيين في مدن الملح فور وصولهم إلى الصحراء. نطق باسمهم، أولاً، "متعب الهذال" فواجه "الأمير" بموقف الرفض وحاول تعليقه: "ما نقدر نعيش معهم. لو كانت القضية يوم أو اثنين تهون، لكن أن نعيش جميعاً، ما نحتمل. وإذا كنا حتى اليوم، ما حملنا سلاح في وجوه بعض لا أحد يدري باكر ويش يحصل"⁽¹⁾. ثم وصل إلى درجة عالية من الغضب والرفض، فعبر عن سخطه بكلمات قاسية: "إنهم ألعن من اليهود [...] أولاد الحرام"⁽²⁾. ولكنه لم يستطع تغيير شيء فرحل مفضلاً الابتعاد من أرضه وأهله إلى الأبد على العيش مع الأميركيين! وحمل بعده لواء الرفض "ابن نفاع" فكان واضحاً ومباشراً: "منذ أن جاء الأميركيون جاءت معهم العفاريث والمعاصي والمصائب، ولا أحد يعرف ماذا سيحصل في الأيام الآتية"⁽³⁾. عبر "ابن نفاع" عن رفض عام وشامل. ودعمه في ذلك "صويلح" الذي رفع صوته مدوياً: "الله يلعن الأميركيان وأبو الأميركيان [...] جاؤوا وجاء معهم كل البلاء"⁽⁴⁾.

في المقابل تبلور الموقف الأميركي من أهل الصحراء رفضاً واستعلاء واحتقار. كانوا يحاولون التعاون معهم لضمان النجاح في العمل، لكنهم كانوا يرفضونهم ولا يعترفون بإنسانيتهم أحياناً. حرّموا عليهم الاقتراب من بيوتهم، والنظر إلى برك السباحة. كانوا يصرخون في وجوههم "طالبين إليهم أن يتحركوا، أن يتركوا المكان فوراً، ويطردونهم كما تطرد الكلاب..."⁽⁵⁾. قد يكون السبب الأكثر أهمية لهذا الرفض المتبادل التباين الحضاري العام بين الشعبين. إنه لقاء مر "وزيجة فجائية بين حضارة راسخة في البداوة وأخرى زاحفة من الغرب المتقدم"⁽⁶⁾.

إطلاق الصفات لا يخضع لمحض الصدفة، يقول السارد: "فقد كان إطلاق الصفات أمراً ضرورياً لمواجهة الحالة الجديدة"⁽⁷⁾، وهذه الحالة ترتبط طبعاً بالموقف العام من الأميركيين الذين استقروا في البدء في وادي العيون، هذا الموقف ينم عن عدم التواصل الحضاري بين أهل الوادي وهؤلاء الأجانب، إن حضور الاسم يكتسي دلالة مزدوجة: إنه إعلان الوجود الذاتي وإعلان الوجود الموضوعي بالنسبة للآخر. والحال أن هؤلاء الأجانب يعتبرون دخلاء ولا يتعدى حضورهم حدود هذه الصفة التي ألصقت بهم بعد ظهورهم مباشرة، ولذلك لجأ أهل الوادي إلى مراقبتهم في تصرفاتهم قبل أن يطلقوا عليهم: "الغراب" أو "ابن الملعونة" ف"الأكل والبطين والجربوع والأفصع والمغزل والدجاجة وأبو الحصين"⁽⁸⁾.

هذا المقطع الذي ارتأينا الاستشهاد به، تتجلى من خلاله القدرة على الإيحاء وتداعي الأفكار. فالألفاظ جاءت محملة بدلالات معجمية، وسياقية، وتضمنت معاني الكراهية، والإصرار على رفض الآخر وتدميره، مما ولد

(1) الرواية، ص 94.

(2) الرواية، ص 36.

(3) الرواية، ص 383.

(4) الرواية، ص 198.

(5) الرواية، ص 577.

(6) سمير أبو حمدان، النص المرصود، ط 1، مؤسسة مجد، بيروت، 1990، ص 118.

(7) الرواية، ص 85.

(8) الرواية، ص 85.

صداما حضاريا بين قطبين متميزين أحدهما يمتلك وسائل التمدن وثانيهما يسعى للأخذ بالركب الحضاري والسير على منهاج العالم المتحضر، فقد بات "واضحا أنه لا يمكن مجابهة الغرب بالحيل التوفيقية أو الانغلاق على الذات. فما ندعوه الثقافة الغربية اليوم أصبح ثقافة عالمية لا يمكن العيش خارجها دون السقوط خارج التاريخ..."(1).

تجلى ذلك أيضا في انفتاح السارد على زاوية نظر أخرى تنطلق من الموقف الأمريكي باتجاه العرب، وتعبّر عن رغبة فعلية عند بعض الأميركيين في التقرب من العرب، وفي مساعدتهم على المعرفة، هكذا حاولوا توضيح قيمة الكتب التي معهم، وإفهام العرب بأنها ليست كتب سحر، وكانت محاولتهم لا تخلو من محبة(2).
جاء الأميركيون إلى الصحراء للتقريب عن النفط واستخراجه برضى الحكومة وعبر عن هذا الموقف، أولاً، الأمير، "أبو رضوان"، عندما اعترض الناس على وجودهم: "حنا طلبناهم وجاؤوا لمساعدتنا [...] واجبكم تسهلوا عمل الأصدقاء وتخدموهم بعيونكم..."(3). رغم ذلك، ظلت علاقته بهم مبتورة. إنها علاقة ود معلن، ولكن هناك ما هو مخبوء. إذن، فالعلاقة بين الاثنين علاقة سيطرة الغرب على الشرق، ومحاولة هدم هويته وقهره وإلغاء ثقافته ونهب ثرواته، ولكن أين الشرق من كل هذا؟

إن النظرة الغربية للشرق لا تخرج عن حدود الأنانية الثقافية والعرقية التقليدية المعروفة والمتداولة، فهي مزيج من الحقد، والكره، وعدم التفاهم والخوف، إنها مزيج من السمات السلبية التي تحتمها طبيعة الرغبة المكبوتة في داخل الغرب للسيطرة على الشرق وإحساسه الدائم بحاجته الماسة إليه، ومثل هذا الإحساس لا يقتصر على الغرب فقط، بل يمتد إلى الشرق أيضا. لقد جاء الغرب واختلط بالشرق بدافع السيطرة عليه وفي محاولة لإبراز تفوقه، وهو ما قاد إلى وجود قطبين متضادين: أحدهما يملك من القوة ما يسمح لنفسه بالسيطرة والتفوق على الآخر/الشرق الذي يراه ضعيفا، والآخر الضعيف يخضع للآخر القوي، ومع الخضوع والإذلال فإنه يرفض هذا الآخر، بل ويحاربه أينما كان وفي أية صورة تجسد.

تعتمد الروائي المبالغة في المبالغة في المبالغة بين الحضارتين، فأهل وادي العيون قد غرقوا في البدائية، والسذاجة، و"الأمريكان" الآخر قمة في التحضر، ومسافة البعد بينهما قد أدت الصراع، ثم منحتة القوة. إننا هنا إزاء لقاء حضاري بين طرفين غير متكافئين. لقد كان الأميركيان الطرف الأقوى والمهيمن بسبب تفوقه الحضاري والتكنولوجي المتمثل بالمعدات والآلات التي أحضرها لتحقيق المهمة التي أتى من أجلها، إضافة إلى الخطط والأفكار المعدة مسبقا لما يريد أن يحققه، في حين كان أهل وادي العيون لا يعون ما يدور حولهم وعاجزين عن التعامل الواعي مع ما يجري لهم وحولهم، لذلك لم يكن ثمة إمكانية للحوار بين الطرفين، لأن الحوار يحتاج إلى طرفين متكافئين. بالرغم من الجو العام الخانق للرواية إلا أنها كانت رواية تفاؤلية، تسأل المستقبل، وتثق في إجابته.

تجاوز "خزنة" "أبا عثمان" بقولها:

"- قولك، يا أبو عثمان، أن دم مفضي ما يروح.

(1) شرابي هشام، الثقافة العربية في المهجر، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988، ص25.

(2) الرواية، ص277.

(3) الرواية، ص192.

- دم مفضي، يا خزنة، راح... راح...

- راح...!

- أسألي يا بنت الحلال، هالحين دم من!

- سالفتنا طويلة يا أبو عثمان؟

- طويلة... وقصيرة⁽¹⁾.

يقول: "ابن نفاع" لـ"خزنة" في آخر سطر من الصفحة الأخيرة من رواية "التيه":

"- تفاعلوا بالخير... لكن لا أحد يعلم بالغيب"⁽²⁾.

هذه دعوة صريحة للتفاوض المجدي. وإذا كانت الرؤية التصادمية هي المهيمنة على عمل عبد الرحمن منيف، فإن رواية "شرقية في باريس" لعبد الكريم غلاب تغري بالتعامل معها بوصفها عملاً يتأطر بحدود ممارسة نسقية مختلفة هي نسق التوفيق الساعي إلى التوفيق بين حضارتين مختلفتين في التاريخ والرؤى ليستبدل بالصراع الحوار.

ثقافة التواصل في رواية "شرقية في باريس"

إن اختيار المبدع عنوان "شرقية في باريس" يمكن التعامل معه في إطار السطوة التفسيرية للنسق التوفيقي الذي آمن به عبد الكريم غلاب بوصفه بنية رمزية تشير إلى إمكانية التجاور بين الحضارتين "غرب يصبح شرقاً، وشرق يصبح غرباً وهي تدور"⁽³⁾.

تدور رواية "شرقية في باريس" حول فتاة من أسرة مسلمة محافظة في سوريا، اسمها سامية تنتمي لعائلة شرقية محافظة، كما تصرح بذلك: "أنا فتاة نهلت تربية من عائلة محافظة، يوم ولدت كنت الرابعة بعد ثلاث، كان أبي وأمي يأملان ولداً، بكت أُمِّي، واستبشر وجه أبي، وقال: الله اختار، ولا يختار لنا إلا الخير، ستكون أحسن أخواتها، وأكثرهن عناية بي وبك يوم نعجز، البنت مهما بعدت، تكون أكثر حناناً، قال لأُمِّي، ليجعلها الله أكثر رضى"⁽⁴⁾، وكذلك كان، فقد تابعت دراستها الابتدائية والثانوية في سوريا، إلى حين حصلت على شهادة البكالوريا، تأخذ في مراسلة شاب فرنسي اسمه (أندري) بالبريد الإلكتروني من إحدى مقاهي الإنترنت.

ثم ترحل هذه الفتاة إلى فرنسا لمواصلة دراستها الجامعية في السوربون "تخصص فلسفة"، والتي طالما حلمت بباريس الحرية وحقوق الإنسان، "أريد أن أربط حياتي بالعقل والمعرفة وفضاء الدرس والبحث العلمي. امرأة من دمشق، [...] أحببت باريس، ليس لأنها عاصمة النور والحرية، ولأنها عاصمة حقوق الإنسان"⁽⁵⁾، وتلتقي بذلك الشاب الفرنسي الذي يدرس القانون، تقع في غرامه، يطلب يدها، يصطحبها إلى أهلها في سوريا، ينطق بالشهادتين، دون أن يعرف من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه، وسط زغاريد أمها وأخواتها وجاراتها،

(1) الرواية، ص 607.

(2) الرواية، ص 607.

(3) غلاب عبد الكريم، شرقية في باريس، د.ط، منشورات مرسيم، الرباط، 2006، ص 5.

(4) الرواية، ص 53.

(5) الرواية، ص 204.

يعودان إلى فرنسا، ينضمّ هو إلى حزب سياسي عنصريّ، يكثر تعيّبه عن بيت الزوجية بحجة اجتماعات ليلية، تتغير تصرفاته اتجاهها، تكثر المناقشات بينهما حول قضايا خلافية، يأخذ بالإعراب عن احتقاره للأجانب، يزداد الجدل بينهما، يصفعها، يقع الطلاق، تتفاقم معاناتها النفسية، تفكر بالعودة، ولكنها لا تحتمل نظرات الشامتين، فتقرر البقاء ومواصلة دراستها.

تدرس في مجموعة بحث في السوربون تضم طلبة من أقطار مختلفة من أفريقيا وآسيا وأوروبا، وتتدارس المجموعة موضوعات فلسفية واجتماعية ونفسية واقتصادية، هدفها إيجاد الشروط اللازمة لإيجاد تنمية بشرية في الأقطار النامية وإقامة حوار بين الثقافات والأديان والبلدان، من أجل رفاه الإنسان وترقية حياته. ويقع الأستاذ الفرنسي في حبّ الطالبة الشرقية المطلقة لا بفضل ملاحظتها فحسب وإنما أيضاً بفضل خلفيتها الحضارية وقيمها وجرأتها في طرح أفكار تتسم بالأصالة والجرأة، فيتزوجها، ومن خلال معاشرته لها يكتشف سمو ثقافتها الإسلامية فيفتهمها وينجذب إليها.

ينشغل الخطاب الروائي بفضح العناصر المضمرة والمغذية للصراع الحضاري عبر جمالية النقد، هكذا تتقدم الكثير من المقاطع السردية في الرواية فاضحة السياسة المتبعة من لدن الآخر الغربي تجاه الذات الشرقية، وهكذا، نلاحظ أن النص ينبئ عن فضح سياسة التشويه الممنهج للآخر الشرقي، وترسيخ صورة سلبية في الأذهان.

ضمن هذا السياق، يستدعي الروائي شخصية "أندريه" الذي نلمس في خطابه الحس الانتقادي بحيث يكشف عن تكريس الصورة النمطية السلبية للشرق، ويتيح اتساع الهوية بين الذات والآخر، كما نستشف ذلك من المقطع الموالي: "[...] البلاد التي لا توفر لأبنائها الخبز يجب أن تباد [...] نعم، يجب أن تباد، ما قيمة شعوب إفريقيا جميعها، وبعض شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية، إنهم جميعاً عبء على الإنسانية، كابح يحد من سرعة سيرها، شعوب لا تنتج حتى غذاءها، وتطلب من الآخرين الغذاء، والطباشير ليتعلم (الأميون) فيها كيف يكتبون أسماءهم"⁽¹⁾.

تكمن صعوبة دراسة الصورة في إمكانية الوقوع في وهم الواقع، إذ تخضع الصورة في هذا الحال لمدى ارتباطها بالبنية الثقافية والاجتماعية للذات الناظرة التي لها القدرة على تغيير ملامح الآخر، ممثلة في دلالات مستوحاة من التاريخ ومن التراكمات الثقافية؛ ويمكن تأويلها بالصورة المفترضة التي تشكلت في ذهن الروائي في إطار الزمان والمكان⁽²⁾. ضمن هذا المنحى يطرح علم الصورة (L'imagologie)⁽³⁾ التي تعد من أحدث ميادين الأدب المقارن مشكلات منهجية للدارس، فهي رؤية تجاه الآخر تخضع لنوازعه الانطباعية الذاتية واتجاهاته الفكرية.

(1) الرواية، ص 96.

(2) Pierre Brunel et Yves Chevrel, Précis de Littérature Comparée, éd. P.U.F, Paris, 1^{ère} édition, 1984, pp 139-143.

(3) اهتم المقارنون أمثال جان ماري كاري (Jean Marie Carré) ودانيال هنري باجو (Daniel Henry Pageaux) وبول هازار (Paul Hazard) بمجال علم الصورة الذي يمثل تاريخ الأفكار لشعبيين متباينين لغة وثقافة وفقاً لما تبنته المدرسة الفرنسية. وقد تطور هذا النوع من الدراسات في الغرب بعد ظهور المراكز البحثية الجامعية التي اهتمت بميادين تتصل بالصورولوجيا كأدب الرحلات وأدب الغرائبية وأدبيات الاستشراق.

الخطاب المنتج من الآخر هو إعادة تشكيل نص جديد، يحتكم لتصورات مسبقة مثل التأثيرات الثقافية والأيدولوجية ودورها في إنتاج النص، والصورة بهذا المعنى لا تتطابق مع الحقيقة، بقدر ما ترتبط بثقافة الآخر، وبأيدولوجيته وانتماءاته الحضارية...⁽¹⁾، ولا تنفصل في كثير من الأحيان عن العالم التخيلي. ولإبانة عن ذلك، يمكن الاستشهاد كذلك بالحوار الذي بلغ قمة الصراع العنيف بين سامية الشرقية وبين أندري الفرنسي الذي انتمى إلى حزب عنصري متطرف بعد زواجهما بسنتين، وأمسى الزواج على كف عفريت، ستكتشف سامية، الفتاة الشرقية المتفتحة الشجاعة، أن زوجها أندري أناني حد التعصب، يعتز اعتزازاً أعمى بانتمائه الأوربي، وحضارته الغربية المادية، ويرفض ما دون ذلك، وما انتماؤه السياسي لحزب الجبهة الوطنية العنصري بزعامة اليميني المتطرف "لوبين"، سوى دليل صارخ على ذلك، مما انعكس سلبياً على علاقتهما الزوجية:

"[...] لم أنتزع من نفسه كراهيته للشرق...

- لو لم يكن في الملتقى لما التقينا.

- أنت أناني...

- الحضارة علمتني أن أكون كذلك.

- كارثة العالم أن حضارته أنانية لم يستطع أن يتنازل عنها. تعلمت من أساتذتي أن الخطأ خطأ الإنسان، لا خطأ الحضارة.

- الإنسان صانع الحضارة.

- الحضارة صانعة الإنسان.

- أخطأت يوم صنعته هكذا أنانياً.

- لا. صنعته سوياً فانحرف.

- الانحراف، هو الآخر، شيء جميل...

- ما لم يرم بحضارة ما إلى الهاوية. أن تدمر حضارة فتلك هي الهاوية.

- ربما لتبقى حضارة واحدة هي السائدة.

- ومن يمنحها السيادة؟ ومن يؤكد أنها لا تدمر نفسها وهي تدمر الأخرى؟⁽²⁾.

يتعمق الحوار الحضاري حينما ينتقل السرد باستقصاء التمثيلات القبلية والصور الجاهزة عن الذات والآخر، فيصير الحوار أداة اكتشاف الصور المشوهة القابعة في الذاكرة. ويبرز ذلك في استمرار تمسك "أندري" بأفكاره العنصرية، وتماديه في احتقار حضارة شريكته سامية، لدرجة وصلت حد الإهانة والضرب، كما حصل مثلاً أثناء مناقشتها قضية المغربي "عمر الرداد" بحضور صديق العائلة "جورج":

"لا يا جورج: المشكلة أكبر من ذلك، هذه الشرقية، نطق الكلمة بكثير من الازدراء، ولأول مرة لم يلفظ باسمي، تحاول أن تدافع عن مجرم من طينتها.

احتدت أعصابي أكثر من ذي قبل، تمنيت لو أن جورج لم يحضر تلك الساعة، ليستمع إلى الازدراء، كلمة الشرقية، صرخت على قدر ما تسمع حدة أعصابي: غير محق أنت (التفت إلى جورج)، جورج، هذا إنسان لا

⁽¹⁾ Daniel Henry Pageaux, De L'imagerie à L'imaginaire, Précis de Littérature Comparée, Op.Cit. p132.

⁽²⁾ الرواية، ص 33-34.

يقول الحقيقة، شرقي كشرقية يمنعي أن أدافع عن مجرم. ما كنت لأحتد لو لا أنه أعاد اتهامي عدة مرات، وأمام رجل يحترمني، مثل ما احترمه، ضغط على أعصابي حتى نطق لساني بالحقيقة.

(صرخ في جنون) أنا كاذب يا شرقية يا فاجرة؟

تحسست خدي، وأنا أشعر بأن دماء تجرت، من يبابعه، دمعتان تتبعان من عيني، أدت ظهري للرجلين، وفتحت الباب⁽¹⁾.

هذا ما يخول لنا الحديث عن الصورة النمطية (Stéréotype) التي توحى بالأحكام المسبقة (Préjugés) وتتشكل وفقها صورة الآخر. إذ تكمن أهمية النمطية في عملية إدراك وتقديم الآخر في شكل مختصر وسلبى ونقل صور مشوهة عن ثقافته، ولعل هذا ما يفسر صورة الغريب التي تصاغ حسب التصورات الذهنية المطابقة لوجهات النظر الأيديولوجية والعرقية "لتنتمي بشكل ما لزمان أسطوري يقع خارج الحدود الزمنية المألوفة"⁽²⁾.

بعد صراع داخلي قوي، امتد لأسبوع كامل، استحضرت سامية كل جوانب النجاح والإخفاق في هذا الزواج المختلط، انتهت في الأخير بانتصار الإنسان على الأناني، الحب على الكراهية، والحاضر على الماضي، فقبلت عرض "أندي" دون حرج، متحدية كل العوائق، لا لشيء، إلا لاقتناعها القوي بأن الإنسان في المحصلة الأخيرة، ابن الفكر لا الأرض "أنا هي أنا، امرأة لا أخجل من أنوثتي، أعترز بها، لن أظلمها، حقي عليها كحقها علي، لن أحرماها من أنوثتها، من حقها أن تعيش الجمال في السماء والقمر والنجوم والسحب في البحر، في الأشجار، والزهور والورود في الضياء والظلام، في إشراقة الفجر، وغروب الشمس، في الإنسان والحيوان أعشق اللوحة الجميلة والقطعة الثمينة، والوجه الجميل، لو لم يكن هذا الذي اعترض طريقي بدخنيته جميلاً، لما توقفت عنده، ولما كانت لي معه غير كلمة، ثم مشيت، من حقي أن أحب، وإلا أجهضت إنسي، من حقي أن أجلس إلى إنسان، كما أجلس إلى إنسان، كما أجلس إلى إنسانة، العقدة التي تغمر نفوسنا وعواطفنا وضميرنا وحواسنا الفاضلة جميعاً، تتعلق بالرجل، لماذا لا تغمره هذه العقدة ضد المرأة إلا عند الشعوب التي تعيش في الخفايا والظلام"⁽³⁾.

يفصح الخطاب عن رغبة الذات في التواصل مع الآخر، وإن كنا نكتشف في أحداث الرواية إخفاق هذه الشخصية "سامية" في تحقيق حلمها؛ ومن ثم فشل مشروع "سامية" و"أندي" وبتر العلاقة بين الحضارتين. ولعل ذلك يستدعي "حضور الأنا العربي حضوراً واعياً، حضوره كذات لها تاريخ، ذات لها فرديتها و تناقضاتها وسيورتها الخاصة [...] وعي الذات نفسه هو شرط لاكتساب القدرة على التعامل النقدي الواعي مع الآخر..."⁽⁴⁾.

هذه المحافظة التي تمردت على كل تقاليدنا، لتندفع بكامل تلقائيتها وعطشها وعشقها وإيمانها بحضارة إنسانية سامية، تصطدم بوجه مخيف لفرنسي متعصب لقيم ومبادئ عنصرية، قد تستفز فقط علاقة حب بين فرنسي وزنجية في شوارع باريس الراقية.

(1) الرواية، ص 106-107.

(2) Marcel Detienne, L'invention De La Mythologie, éd. Gallimard, Paris, 1982, p70.

(3) الرواية، ص 53-54.

(4) عابد الجابري محمد، الخطاب العربي المعاصر، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996، ص 206.

في شارع "الشانزليزي" لفت نظر "سامية" شابان: طويل القامة جميل المحيى أشقر الشعر تلمع الصحة والحيوية في وجهه المبتسم، يتأبط ذراعها، فارة الطول متجردة كخنخة سامقة فاتنة تقاسيم وجهها، سوداء تلمع أشعة الشمس على خديها فتزداد إشراقا، يلبس ملابس عادية رمادية، تلبس لباسا فضفاضاً أزرق محلى بتقاسيم ملونة، يكسو رأسها منديل حريري في لون ثوبها الفضفاض في ضفيرة متداخلة يعلو رأسها كتاج على رأس ملكة إفريقية [...] امتزاج حضارتين، أسمى قيمة في الود والحب...⁽¹⁾.

هكذا فكرت وهي تسير بجانب "أندري": "أليس الأمر دليلاً على "انسجام اللونين والحضارتين"⁽²⁾، أما "أندري" فكان المشهد يثير لديه الغثيان: [...] تريدني أن أسير في مواجهة المشهد الغريب المثير للغثيان في أجمل شارع في باريس؟"⁽³⁾. ويؤمن إيماناً راسخاً بوجود "ثلاثي صنعه شعب فرنسا بدمائه لأبناء فرنسا لا للأجانب"⁽⁴⁾، "أندري" لم يكن إلا نموذجاً لذلك الخطاب العنصري الذي يؤمن بهيمنة الأنا، وسيادة القوة، والمادة، والتكنولوجيا على كل لغة حضارية مهادنة.

بعد أن غادرت سامية البيت بعد أن وجه لها "أندري" صفة وشتمها بأنها شرقية فاجرة، لأنها انحازت إلى براءة البستاني (عمر) الذي اتهم ظلماً من طرف القضاء الفرنسي بقتل مشغلته الفرنسية. رفضت اعتذاره، وفسخت عقد الزواج، وأنهت العلاقة التي كانت تربطها به، ثم انطلقت حرة في بحر الحياة. وبذلك طوت آخر صفحة في تاريخ تجربة فاشلة، تجرعت مرارتها طوال السنتين اللتين قضتهما، غير آسفة، مع أندري، لتطوي معها الماضي الحزين الذي ظل يلاحقها بغرفتها المظلمة في فندق السيدة بوفاردي.

فقد شكلت شخصية "أندري" نموذج الثقافة النسق التي فرضتها المركزية الغربية وفقاً للمتحيل الاستشراقي الذي استقى مادته من فلسفة سياسة التهميش وإقصاء الثقافات. وتجلت جمالية التسريد في الرواية عبر جمالية الكشف والفضح أي في كشف الشك المتأخم لليقين الذي يقبع في العقلية أو الخلفية الشعورية واللاشعورية للآخر تجاه الذات المشرقية. لتفتح بعدها أخرى كلها أمل ورجاء: "عدت أدراجي لا أعرف ما أفعل بنفسني، توقفت قليلاً أمام النافذة، نداء من خلفها سمعت صوت النداء، ما كان لي أن أنكره أو أصم أذني عن صوته الطافح بالرجاء:

كنت أتابع النداء خطوة خطوة، حتى وجدتني خارج باب الفندق في قلب باريس، أنا الآن في باريس، أقد إلى هذه المدينة لأول مرة في حياتي، أخطو في شوارعها مسرعة ككل فتياتها، وكأن عملاً ينتظرني، البرد يلف كياني، أتحرك في قوة، وسرعة لأطرد علي زمهيري، حرة أنا، لا ينتظرني أحد، لا أتوقع أن أقابل أحداً [...] حرة أنا... سأزور باريس بكل معالمها..."⁽⁵⁾. تشكل البعد الجمالي لصورة الآخر عبر التجربة الشخصية والمشاهدة، حيث وقف الروائي على مشاهد من الطبيعة الأوروبية، ونظر إلى المدينة الغربية من منظور السائح الشرقي فبدت المدينة في بعد جمالي خالص. لكن سرعان ما كشفت لنا الرواية عن الوجه الآخر للغرب، الوجه المنفتح، الحضاري، الذي جسده "فرانسوا" عميد معهد دراسة سيكولوجية الشعوب ونفسياتها، هذا المعهد الذي ولجته

(1) الرواية، ص 89.

(2) الرواية، ص 90.

(3) الرواية، ص 90.

(4) الرواية، ص 82.

(5) الرواية، ص 109-111.

"سامية" لاستكمال دراستها، فتتزوجها، لتلوح لهما معا من جديد، وفي أفقهما المشترك بارقة أمل في حوار ثري بين الحضارات.

إن الخطاب الروائي قد يسهم في إرساء المفاهيم الإنسانية والتي من شأنها أن تخلق فضاء للتعايش والتحاور بين الذات والآخر بعيدا ترسيخ فكرة صدام الحضارات.

نستشف ذلك من المقاطع التالية: "أنا كما أنا، شرقية غربية تجتمع في إنسانية الإنسان، وحينما تلتقي حضارة الشرق بحضارة الغرب، أكون أنا ممثلة هذه الوحدة"⁽¹⁾. وتضيف "أنا امرأة أعيش مع مشروع، من حسن حظي أنه ثقافي، لم أقبل أن يحد من طموحه أندري، ولا الأزمة التي مرت بها علاقتي به، حينما أقرأ كتابا أعتبر أنني حققت جزء من المشروع الكبير، حينما أحضر محاضرة، وأناقش المحاضر أعتبر أنني جديرة بتحقيق جزء من المشروع، لن تقف الأزمة في وجه المشروع، أو تضع له نهاية، لن يعرف الفشل طريقي، فما فشلت في مشروع اعتزمت القيام به، حتى مشروع الزواج لم أفضل فيه، لم أكن أنا الخاسرة، خسرتي لأنه لم يعد يستحقني، وريح أنانيته، خسر شخصيته ومستقبله"⁽²⁾.

تعتمد الروائي الدقة في اختيار التعابير والمفردات التي توحى بحقيقة الصورة التي أراد تشكيلها، وتوهم بإمكانية التقارب بين الحضارات، وإن تباينت الأجناس واللغات وهي رؤية كفيلة بتبادل الأفكار بين الشعوب وإثراء الحوار بين الحضارات.

لا يخلو الخطاب من إصرار الذات على الاندماج والتفاعل مع الآخر وإن كانت الصورة المنتجة من الآخر ليست في جميع الحالات بمعزل عن السياق الثقافي العام للبلد الذي ينتمي إليه الروائي. فالخطاب "حول الآخر هو، أساسا، خطاب حول الاختلاف [...] وتناول الاختلاف لا يفضي إلى نفي الجدلية بين الذات والآخر، كذلك لا يفضي تناول الاختلاف إلى المساواة بين الثقافات لان النظر إلى الآخر باعتباره مختلفا يحيل بالضرورة على الترتاب"⁽³⁾.

هذا إذا أضفنا أن الروائي استطاع أن يحور الوقائع والأحداث ويرتقي بها إلى عمل إبداعي يطرح فكرة التقارب بين الشرق والغرب ويدير حوارا بين شخصين متباينين المعتقدات، ويبرز ذلك من خلال التناق "سامية" بمعهد الدراسات الاجتماعية والنفسية للشعوب كما نصحتها بذلك الموجه: "قال الموجه مرة أخرى، حينما عدت إليه أستشيريه: لم لا تلتحقين بمعهد المجتمعات الفرنسية؟ معهد جديد أنشئ نتيجة معرفة العلماء بمجتمعات المستعمرات، لا يدرس الاستعمار، بل يدرس ما بعد الاستعمار، النتائج الإيجابية والسلبية للتطور العلمي بعد أن استقلت كل الشعوب التي كانت تحت الاستعمار الفرنسي والانجليزي والهولندي"⁽⁴⁾.

اختارت بطلة الرواية الدراسات النفسية والاجتماعية، لأنها آمنت بأن هذه الدراسات طريق "لاكتشاف وحدة الحضارات"⁽⁵⁾. وهدفها الأول من هذه الرحلة الأوروبية الطويلة. وإذا كان الحكم الاستعماري اعتمد على نتائج

(1) الرواية، ص 97.

(2) الرواية، ص 127.

(3) لييب الطاهر، في مسألة الآخريّة، ضمن كتاب (صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، 1999، ص 21.

(4) الرواية، ص 137.

(5) الرواية، ص 133.

البحوث الاجتماعية والنفسية لإحكام السيطرة الاستعمارية، فإنه فشل في القضاء على "العداوة المستحكمة بين المواطنين والمستوطنين [...] وانتهى الأمر إلى الانقسام"⁽¹⁾. ومن بين أهم مهام المعهد العلمية، المساهمة في تصحيح الصورة الخاطئة التي قدمتها المعاهد الاجتماعية الاستعمارية القديمة عن مجتمعات الدول المستعمرة، وما أفضت إليه من سوء تفاهات عميقة، حالت، ومازالت تحول طبعاً، دون قيام حوار حضاري حقيقي بناء مع هذه المجتمعات، مما ساهم دون شك في تعميق الكراهية والصراع بين الشعوب.

بهذا، فالرواية ترصد حياة الحوار النوعي لمجموعة من الشخوص الذين ساقته ظروف الدراسة، والعمل، والهجرة لتستقر في العاصمة الفرنسية باريس، فوجدت نفسها منخرطة في رباط صداقة نوعي ومتميز لأنه رغم اختلاف لغات وديانات وجنسيات الشخوص المشكلة له غداً مع المدة رباطاً قريباً من الأخوة وتعد هذه التركيبة المتنوعة من الشخوص بوابة هامة لخلق حوار حضاري قوي.

تجدد الإشارة في هذا الموضوع أن عبد الكريم غلاب يعانق أسئلة تروم الإيغال في الواقع الراهن وتحدياته، كما يطرح إشكالية الذات والآخر بأبعادها الفردية والحضارية. وفي مجال سعي الذات للمثاقفة مع الآخر، يطرح عبد الكريم غلاب علاقة الشرق بالغرب في نصه الروائي "شرقية في باريس" الذي تضمن خطابات توحى بالتواصل الحضاري، ويمكن استقراء ذلك من خلال هذا المقطع السردي: "تحدث الأستاذ في آخر إحدى محاضراته: المعهد قد لا يكون جديداً في تاريخ الدراسات الفرنسية، وزارة المستعمرات لم يعد لها وجود منذ عقود، كانت قد أنشئت في كل البلاد المستعمرة معاهد لتكوين الدارسين، كان منهجهم علمياً وجديداً، وكان هدفهم غير علمي، ولا يتسم ببنزاهة العلم... كان يمكن أن تبدأ عصور النهضة في الغرب والشرق معاً، لا تدمرها الأحقاد والحروب والفكر الاستعلائي والشعور الباطن بالدونية، فكروا في هذا الموضوع لتجعلوا من المعهد سبيل بناء مستقبل حضاري مشترك"⁽²⁾.

انطلاقاً من فكرة النص والنص المضاد يستجيب الشخوص لرؤى مغايرة للمرجع التاريخي ينشأ بينهم حوار حضاري لا يرتكن إلى الأحكام النمطية، بل هو قائم على تقبل ثقافة الآخر ومعتقداته الديني بما يضمن الحفاظ على خصوصية الهوية والتكيف مع اللحظة التاريخية والآخر المختلف. كما يلمح في الآن ذاته إلى مد جسور الحوار فيما بينهم؛ فالتنوع الثقافي التعددي يسهم في خلق فضاءات متفاعلة لتخصيب الثقافات وإنمائها.

يمكن استقراء ذلك من الخطاب الآتي: "تكلم (فرانسوا) بصوت هامس وكأنه ينطق بالحقيقة: يا سامية، مائة يوم، شهر، سنة... الزمان كله موجات كموجات النهر تتصاعد ثم تذوب مع التيار، شيء واحد يبقى: ما بالقلب [...] الحب... يبقى إلى الأبد، ينتصر على الزمان، ينتصر على فوضى الحياة... على الماضي، على الحاضر، ليؤكد المستقبل...".

- فرانسوا، (مرة أخرى تتناديه باسمه الواضح بدلاً من الأستاذ) انتصرنا أنت وأنا (توقف الصوت الهامس قليلاً لتعلو نبراته) في تأكيد الحقيقة. خرجت الحضارة -جبناً- منتصرة من معطف صراع الحضارات... لا شرق، ولا غرب، لا شعب يملك ناصية الحضارة لتصارع الحضارات نهاية. بداية عناق، معاً، مع الآخرين والأخريات، نبنى مستقبل الحضارة الموحدة، نهاية التاريخ... بداية مستقبل سعادة الإنسانية جميعها. ستشرق

(1) الرواية، ص 133.

(2) الرواية، ص 133-134.

على العالم في ظل حضارة موحدة قوامها الحب. أنا سورية أنتمي إلى حضارة شرقية، تعلمت في غرب يقال عن حضارته إنها أم الحضارات، الأم لا تتكر بنيتها، سيكبرون وهم يعتزون بأمومتها.

– لنحتفل يا فرانسوا في اليوم المائة بميلاد عهد جديد، عهد وحدة الحضارات.

– أمسك فرانسوا بيدها في حرارة وهو يقول:

– أنت... أنت "سامية" يا سامية⁽¹⁾.

هكذا يختم المؤلف روايته حيث يجعل الشرق والغرب يلتقيان. رغم ما يجري في الواقع من صراعات مدمرة وكراهية متجذرة. كلاهما، إذن، "سامية" و"فرانسوا"، وجهان إيجابيان للحضارتين الشرقية والغربية، ويمثلان مرحلة متقدمة في سلم الحوار الحضاري، فليس، ثمة، عنف، وليس، ثمة، إقصاء وضغائن، وليس، ثمة، علاقات مبنية على مفهوم الاحتقار، لذلك فالنبوءة التي طرحها أحد النقاد، تبدو غير صحيحة تماماً في هذا المجال، وهي أن كل "رواية تتعرض للقاء الحضاري تنتهي بفاجعة، تقوم على سوء التفاهم"⁽²⁾. تزوجت "سامية" من "فرانسوا" أستاذها في معهد الدراسات الاجتماعية والنفسية.

يقول فرانسوا: "زواجي من سامية أحد مظاهر الفكرة التي تملكني وتملكتها للعمل معا من أجل حضارة مشتركة"⁽³⁾. ثم يستطرد المؤلف على لسان فرانسوا: "قصتي تبدأ من البوغاز وطنجة وفاس ومراكش ومن المشرق من دمشق وبيروت والقدس والقاهرة عالم حافل بالنبض نحو المستقبل تمتزج فيه الحضارات واللغات والمفاهيم، استقبلتني وجوه تحييني أو تدلني على الطريق، كنت أمر بمساجد وأضرحة كما يمر السائح الغريب بنوتردام أو أية كنسية في باريس، لم أدخلها ولكن رأيت ما يهزني. المسلمون يصلون في صفوف متراسة"⁽⁴⁾.

خرجت الحضارة، إذن، منتصرة بالحب لا شرق، ولا غرب، ولا صراع حضارات، بداية عناق وتشبيد لمستقبل الحضارة. يستمد الحوار الحضاري كينونته النصية من انفتاح الذات الشرقية بحكم وجودها في الجغرافية الباريسية على الآخر وتلقيحها بثقافته عبر مفاهيم التفاعل والتحاور داخل تكتل اجتماعي متعدد الأجناس والأعراق.

بهذا يصير الحوار الحضاري مغزيا لنسق رمزي غايته محاربة الاغتراب المكاني، والاجتماعي، واستنبات الذات في الجغرافيا الغيرية عبر الاندماج. إنها عملية تركيها رمزية مدينة باريس المحتضنة للالتقاء والحوار الحضاري، كونها مدينة مانحة فرصة الاستعادة من الآخر، وفرصة الثقافة، والاحتكاك بالأعراق الأخرى.

يمكن الحوار الحضاري من وضع التمثلات الجاهزة عن الآخرين أمام مشرحة النقد، والفحص، والتعديل، انطلاقاً من هذا يصير المتخيل الروائي القائم على الحوار الحضاري أداة تحرر الذوات من سلطة التمثلات الجاهزة.

في هذا الإطار، فالمهمة المنوطة بالمتقف أو الأديب أن يعمل على تحطيم القوالب والأنماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيوداً شديدة على الفكر الإنساني وعلى التواصل بين البشر⁽⁵⁾.

(1) الرواية، ص 230-231.

(2) محمدية أحمد سعيد، الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، ط5، دار العودة، بيروت، 2007، ص 40.

(3) الرواية، ص 209.

(4) الرواية، ص 209.

(5) انظر في هذا الإطار، سعيد إدوارد، المتقف والسلطة، ترجمة، محمد عناني، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 19.

خاتمة البحث ونتائجه

يبدو جليا أن مكون الحدث في الروايات المدروسة من خلال سياقاتها التخيلية قد انفتحت على قضايا عالمية كبرى لأنها انبثقت من صلب واقع متمس بلقاء حضاري مؤطر بثنائيات متنوعة الذات/الآخر، الشرق/الغرب، الحوار/الصدام.

ما يمكن استنباطه من قراءتنا هذه النصوص موضوع الدراسة هو أنها سعت إلى إبراز أن سؤال الذات والآخر ما زال يشكل على مستوى اللاشعور الثقافي والسياسي عند المثقف العربي والمثقف على حد سواء، طيمة لا تزال تفرق المتخيل الجمعي العربي، وتلامس لا شعوره الثقافي والتاريخي بحكم أن العرب لا يزالون يطرحون سؤال من الذات ومن الآخر، ولم يتوصلوا بعد إلى جواب أو حل تاريخي لمعادلة الحوار والتواصل الحضاري القائم بينهم وبين الغرب.

وعليه، فقد طرحت رواية "النتية" تجربة "متعب الهذال"، في ارتباط، بشكل جدلي وقوي جدا بجذلية كبرى وشاملة، تهيمن على تفاصيل النص بكامله وهي: الشرق/الغرب. أما أهل الوادي فكان نصيبهم من كل هذه التطورات والتغيرات التشريد والإقصاء والترحيل الإجباري عن أرضهم الوادي، بعد أن شرعت الآلة الأمريكية في ابتلاع اليباس والأخضر.

هناك صراع بين الأمريكان، كقوة وسلطة فاعلة ومهيمنة، تطمح بوسائلها الخاصة، الذاتية والمتخلقة، إلى محو ذات أخرى، مختلفة، والقضاء على خصوصياتها، وبين حران، كفضاء مكاني وبشري، ومستقبل للغزو الأمريكي، هذا الفضاء الذي كان فاقدا للأسلحة المناسبة التي يمكن أن تؤهله لخوض الصراع ضد ذلك الغزو، والحفاظ على توازنه ومواصفاته التي هي استمراره في الحياة.

كما تناولت رواية أحمد إبراهيم الفقيه "سأهيك مدينة أخرى"، مشكلة الحوار القائم بين شخوص الرواية المبني على خلفية ثقافية ينقي فيها عقد تواصل مبن على الاعتراف المتبادل بخصوصية الهوية، مما يجعل الحوار القائم بين الطرفين يعرف أزمة حقيقة ليهيمن الكذب والوهم على عملية التواصل، وهو ما يخلق تناقضا في هوية كلا الشخصيتين.

أما رواية "شرقية في باريس"، فقد طرحت اللقاء الحضاري بين شخوص عرب وأجانب رغم التباين العرقي والعقدي على النحو الذي جسده العلاقة التواصلية بين "سامية" و"فرانسوا" سعيا إلى إنتاج ثقافة تروج للغة الحوار وتسهم في تحقيق التعايش الحضاري بين المجتمعات البشرية. فهي تحاول التفكير بمستقبل تحاوري بين الحضارات، لا صداميا استعلائيا يعتمد القوة وسيلة لحلّ المعضلات الإنسانية، والإقرار بالمصلحة المشتركة، والمساواة بين الشعوب، والبحث عن الأهداف التي يجب التمازج حولها.

اشتركت الروايات الثلاث في أنها فتحت الحوار الحضاري مع الغرب، وأظهرت أنه حوار عقيم لا يستقيم من دون إجراء تعديلات في ذهنية الإلغاء لدى الغربي والتخلي عن مشاريعه الاستعمارية، وتنازله عن سلوك الاستعلاء، وعدم نظره إلى الإنسان باحترام له حقوقه وواجباته في مجتمعه المحلي والمجتمع الإنساني العام، وعدم نكران فضل الشعوب في إسهاماتها التاريخية الحضارية.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: المصادر

- غلاب، عبد الكريم: شرقية في باريس، د.ط، منشورات مرسم، الرباط، 2006.
- الفقيه، أحمد إبراهيم: سأهيك مدينة أخرى، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000.
- منيف، عبد الرحمن: مدن الملح، التيه، ج1، ط12، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2008.

ثانياً: المراجع العربية

- أحمد يوسف، عبد الفتاح: "استراتيجيات القارئ في النقد الثقافي، نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص"، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 36، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو-سبتمبر 2007.
- إدوارد، سعيد: المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
- برهانة، علي: الرواية الليبية، مقارنة اجتماعية، رسالة دكتوراه مرقونة، مقدمة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 1996.
- أفاية، نور الدين: المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
- التلاوي، محمد نجيب: الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.
- أبو حمدان، سمير: النص المرصود، ط1، مؤسسة مجد، بيروت، 1990.
- شرابي، هشام: الثقافة العربية في المهجر، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988.
- صالح، صلاح: سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2003.
- عابد الجابري، محمد: الخطاب العربي المعاصر، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996.
- محمدي، أحمد سعيد: الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، ط5، دار العودة، بيروت، لبنان، 2007.
- منيف، عبد الرحمن: بين الثقافة والسياسة، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1998.
- الباردي، محمد رجب: شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة، د.ط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1993.
- الطاهر، لبيب (تحرير): صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، 1999.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- Brunel Pierre et Chevrel Yves: Précis de Littérature Comparée, éd. P.U.F, Paris, 1^{ère} édition, 1984.
- Pageaux Daniel Henry: De L'imagerie à L'imaginaire, Précis de Littérature Comparée, éd. P.U.f, Paris, 1989.
- D tienne Marcel: L'invention De La Mythologie,  d. Gallimard, Paris, 1982.